شؤون فلسطينية

معلومات ببليوغرافية:

اسعد رزوق. "إسرائيل والإمبريالية العالمية". **شؤون فلسطينية**. ع. ١. (أذار/ مارس ١٩٧١: ص٢٧-٣٨).

اسرائيل والامبريالية العالمية

الدكتور اسعد رزوق

توطئـــة

ان الروابط التي تشد اسرائيل الى الامبريالية العالميـــة ليست مجرد نسيج من صنـــع المخيلة العربية ، ولا هي اكتشفت مؤخرا فقط على يد منظري الثورة العالمية لكي تفي ببعض المتطلبات العقائدية ويتسنى لها تصوير الدولـــة الاسرائيليـــة بمثابـــة « اداة للامبريالية » ، بينما يجري اعتبار البلدان العربية كـــ « طليعة الكفاح التحرري فـــي سبيل التقدم » .

فالمغامرة الصهيونية ، منذ ان جرى التخطيط لها خلال العقد الاخير من القرن الماضي ، لم تحاول ابدا اخفاء طابعها الاستعماري والعنصري والتوسعي. ولطالما تبنت الصهيونية بشكل صريح ومتواصل دور الحركة السائرة في ركب الامبريالية . فهـــي باعتبارهـــا ايديولوجية سياسية — قومية تهدف الى الاستيلاء على اراضي فلسطين واقامة دولـــة يهودية هناك على أساس استعمار اقليمي النزعة ، قد ارتمت في احضان المعسكـــر الامبريالي بدافع من منطقها الداخلي الخاص .

وبعد انشاء دولتها الاستيطانية استمرت الصهيونية في عملية تدعيم مركزها الاقليمي على الشواطىء الشرقية للبحر الابيض المتوسط ، بينما استأنفت تأدية دور « الحـــارس » للمصالح والمشاريع الامبريالية في المنطقة العربية .

ان دولة اسرائيل لا يمكن تنصيلها من الدور الذي اتخذته ونسبته لنفسها ، وهو الدور الذي يقوم به مركز امامي من مراكز الامبريالية في قلب العالم العربي . وسواء طـــاب لنا الامر ام لا ، فان اسرائيل اصبحت تؤلف جزءاً جوهريـــا لا يتجـــزأ مـــن المعسكـــر الامبريالي . ان سلوكها وحضورها الامبريالي ، بالاضافة الى ارثها مـــن الاستعمـــار الاقليمي المتأصل قد جعل من اسرائيل « قلعة اسبارطية من قلاع الدفـــاع الغربي » ، مثلما حولها الى « راس جسر » للحركة المضادة للثورة ، هذه الحركة التي تتزعمها قوى السيطرة والامبريالية الجديدة في العالم المعاصر .

تهدف هذه المقالة الموجزة الى محاولة القيام بعرض توثيقي لتحالف اسرائيل مع المعسكر الامبريالي،وذلك بارجاع التحركات والمواقف الاسرائيلية الراهنة الى جذورها الصهيونية في كل من هذين المجالين : مجال المخطط الاستعماري الاقليمي والرامي الى غرس اكثرية يهودية في صميم فلسطين بطابعها العربي السائد ، والى ارساء دعائم النزعة التوسعية والاستيلائية في المستقبل . ومجال التحالف الصهيوني ، بناء على تخطيط مدروس بدقة ، مع الامبريالية التقليدية ، وتحت رعاية تلك الدولة الاجنبية التي لهـــا أوفر الحظ ببسط نفوذها وسيطرتها على فلسطين .

ان اقامة دولة المستوطنين الاسرائيلية ينبغي النظر اليها بمثابة الذروة لعملية استعمارية

من نوع قائم بذاته . هذه العملية الاستعمارية ، متى جرى درسها على حقيقتها وتحليلها الى عناصرها ومقوماتها الاساسية ، تكشف لنا الكثير عن طبيعة العلاقات بين اسرائيل والامبريالية العالمية . حتى ان هذا الكشف يناشد المراقب المتجرد عن الهوى دون الالتزام بموقف محدد من النزاع القائم لكي يرى وضع اسرائيل الحاضر وموقعها بالنسبة للمعسكر الامبريالي من زاوية الخدمات التي تسديها دولة المستوطنين الصهيونيين الى الامبريالية العالمية .
وبناء عليه، نجد من الضروري ان يتم التميز بين بعدين اساسيين ومتلازمين من ابعاد العملية الاستعمارية التي تقع على عاتقها مسؤولية انشاء اسرائيل :
أ ـ الحقيقة التاريخية لتلك العملية ،
ب ـ والارث الذي خلفته العملية ، بحيث يتحدد الدور الذي تلعبه ولعبته اسرائيل في تنفيذ المخطط الاستراتيجي للامبريالية .
ان جوهر القضية يمكن التعبير عنه بصورة ملائمة فيما لو استعرنا ما قاله الدكتور فايز صايغ بهذا الصدد :
« ان العملية الاستعمارية التي انشئت اسرائيل بواسطتها لم تصل الى نهايتها لحظة اعلان قيام الدولة . بل على العكس من ذلك ، اذ تركت هذه العملية طابعها على كل من طابع الدولة التي افرزتها ، الى جانب طبيعتها الجوهرية ومسلكها . فالعملية هي اكثر من حقيقة تاريخية : انها ارث تؤلف الناحية الاستعمارية منه في ظل المناخ السائد في عالم اليوم عائقا اكثر مما تؤلف حسنة »(١).

١ ـ التكوين : ١٨٩٧ ـ ١٩١٧

« ان امانينا تشير الى فلسطين مثلما تشير البوصلة الى الشمال . ولذا ينبغي علينا الاتجاه صوب تلك الدول التي تقع فلسطين تحت نفوذها » .

ماكس نوردو

هناك وصف صحيح للحركة الصهيونية ، خلال العقدين الفاصلين بين اطلاق برنامج بازل رسميا (١٨٩٧) وصدور وعد بلفور البريطاني (١٩١٧) ، يرى فيها حركة « تبحث عن اعتراف دولي » . لقد اتخذ هذا البحث مختلف الاشكال ، ومر عبر العديد من التحولات : من حيث التشديد والاتجاه . لكنه بقي هو هو في جوهره ، اي السعي لاقامة تحالف مع تلك الدولة التي تقع فلسطين تحت سيطرتها او من المتوقع لفلسطين ان تخضع لنفوذها متى اصبح تقسيم الامبراطورية العثمانية الى مناطق نفوذ بمثابة الامر الواقع .
يتوجه هرتزل في كراس **« الدولة اليهودية »** (١٨٩٦) الى القارىء الاوروبي العادي ويخاطب الذهنية الامبريالية لدى الجماهير عند نهاية القرن الفائت، معتبرا ان الاستيلاء على فلسطين وغزوها يمثل امتدادا لسياسة اوروبا في الخارج . فهو يعلن ابان ذروة العصر الامبريالي باننا « سوف نؤلف هناك جزءا من المتراس الاوروبي ضد اسيا ، ومركزا اماميا للمدنية بوجه البربرية » .(٢)
ثم يكرس السنوات الاخيرة من حياته الصهيونية لكي يطرق جميع الاتجاهاتوالاحتمالات الممكنة ويجرب نيل الحظوة لدى اربابها : من السلطان العثماني وحلفائه الالمان الى الحكومة البريطانية وحكام روسيا القيصرية . ان قصة هذه الاتجاهات وما رافقها من تحولات وتبديلات لا يمكن سردها الان بكافة تفاصيلها . وربما يفي بغرض هذه المقالة ان نختار بعض العينات التي تمثل على ذلك أصدق تمثيل :
أ ـ **المحمية الالمانية :** حاول هرتزل توجيه الحركة الصهيونية صوب المانيا الامبراطورية.

آملا الحصول على حماية المانيا للمستوطن الاستعماري المنشود في فلسطين . ففي رسالة مؤرخة في منتصف اذار (مارس) ١٨٩٩ ، وموجهة من رئيس المنظمة الصهيونية العالمية الى وزير الدولة الالماني وناظر الخارجية ، فون بولو ، نجد هرتزل يصور له أبعاد المغامرة الاستعمارية التي ينوي الصهيونيون الاقدام عليها بالشكل الاتي :

« لكن فلسطين اصبحت ايضا مشكلة تتعلق بالسير والمواصلات ، لانها تؤلف اقصر طريق الى الهند — لا بل اقصر طريق جنوبي الى آسيا كلها، بما أن الطريق الشمالي الجديد هو في حوزة روسيا دون سواها . وينبغي مد خط حديدي بين شواطيء البحر المتوسط والخليج الفارسي ، علما بأن اليهود وحدهم يملكون القدرة على تنفيذ ذلك . فقد صار الناس الان يعرفون ما كان مجهولا قبل ٣٠ عاما خلت لدى دوائر الدولة في اوروبا : اهمية الطريق القصير من طراز قناة السويس . ان حل « المسألة الفلسطينية » — ولا اقول « المسألة اليهودية » بعد اليوم — يأتي بمثابة تكملة للاحداث الجارية مؤخرا في آسيا » .(٣)

ب — **البراءة العثمانية** : وحين التفت هرتزل الى السلطان العثماني ، راح يقطع له الوعود بتقديم خدمات ثمينة لقاء امتلاك اليهود لفلسطين. فالحركة الصهيونية سوف تأخذ على عاتقها مسألة تدبير شؤون الامبراطورية وتسديد الديون المترتبة عليها بالاضافة الى التأثير في الراي العام العالمي لصالح السلطان . وفي بادرة ذكية حاول هرتزل المزايدة على شتى العروض الاوروبية بأن رسم أمام ناظري السلطان صورة مثلى للمستوطن الاستعماري الصهيوني في فلسطين . فهو يخاطبه على النحو التالي :

« أن ما تحتاجه هذه البلاد (اي : فلسطين) هو الجهد والمبادرة الصناعية لدى شعبنا (اليهودي) . فالاوروبيون الاخرون يأتون الى بلادكم بقصد الاثراء على جناح السرعة والهرب بالثروات التي جمعوها او غنموها . ومما لا ريب فيه ان الربح الشريف والنظيف الذي يجنيه المرء من مشروعاته لا يضير ابدا ، غير انه يترتب على المنتفعين البقاء داخل البلد الذي جمعوا ثرواتهم فوق اراضيه » .(٤)

ج — **امبراطورية انجلترا الاستعمارية** : اما عندما يقوم هرتزل بتحويل الاتجاه الصهيوني صوب بريطانيا ، فأنه يدرك على جناح السرعة بأن « الانجليز كانوا اول من أدرك ضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث . لذا نجد راية بريطانيا العظمى خفاقة عبر البحار . وبناء عليه ، اعتقد بأن الفكرة الصهيونية ، وهي فكرة استعمارية ، يجب ان تحظى بتفهم سهل وسريع من جانب انجلترا »(٥).

لقد تفوه هرتزل بتلك الكلمات اثناء خطاب القاه في لندن عام ١٨٩٩ . وبعد مضي سنة واحدة ، خلال انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن (١٩٠٠) ، راح هرتزل يشدد على اهمية الاستيطان اليهودي بفلسطين **كمحطة للمدنية** ، وعلى مساهمة الصهيونية المنشودة في حل ما يدعوه بـ « المشكلة الاسيوية » . فهو يقول :

« نحن هم الذين على استعداد بدمائنا وعنصرنا المادي لتأمين هذا المركز للمدنية . وينبغي لكل طالب سياسة ان يدرك بسرعة البرق الخاطف بأن الصهيونية تقدم فرصة ثمينة امام ايجاد مأخذ سهل لآسيا »(٦).

ثم يتابع مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة — وخالق ذلك « التجريد » الذي تحول الى واقع عيني عند اقامة الدولة اليهودية ، في مدى خمسين عاما — مجرى تفكيره على الوتيرة نفسها فيغدق عبارات الثناء على آماله وتوقعاته البريطانية . ويعزف على نغم مدهش بما ينطوي عليه من رؤيا تنبؤية ، فيقول :

« انجلترا ، أنجلترا العظمى ، وانجلترا الحرة، أنجلترا سيدة البحار سوف تتفهم اهدافنا . ويجوز لنا التأكد بأن الفكرة الصهيونية سوف تنطلق من هنا في طيرانها محلقة الى اجواء اعلى وأبعد » .(٧)

فلو اعتبرنا الاستشهادات الواردة اعلاه بمثابة دليل واضح على الطبيعة الحقيقية للمغامرة الصهيونية كمشروع استعماري يسعى للحصول على اعتراف دولي تحت ستار التوازي بين المصالح اليهودية والبريطانية ، لوجب ان يمثل وعد بلفور الصادر عام ١٩١٧ نقطة التحول في الاتجاه الصهيوني والطابع المتأصل للعملية الاستعمارية الصهيونية . أي ان الوعد المذكور يرمز الى تركيز الاهتمام على العطف البريطاني بالنسبة لاقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين .

ان البحث عن اعتراف دولي يصبح بحثا ، تحت رعاية بريطانيا وفي ظل انتدابها ، عن تأمين الاكثرية اليهودية داخل فلسطين واستحصال اكبر نسبة ممكنة من اراضيها ، لكي يتم ايواء المستعمرين والمستوطنين العتيدين .

٢ ــ التنفيذ : ١٩١٨ ــ ١٩٤٨

« هنا تقدم الصهيونية الحل لمعضلة مؤلمة . فلو كنا نحن اليهود على استعداد لتوطيد دعائم المركز البريطاني في الشرق الاوسط ، وعلى استعداد للوقوف الى جانب انجلترا في حراسة قناة السويس ، وعلى الطريق الى الهند ، وللحؤول دون طغيان النفوذ الاجنبي والمعادي ، ودون تصادمه مع المصالح الحيوية للامبراطورية ، نكون بذلك قد اسدينا الى انجلترا خدمة تستحق ان تؤخذ بعين الاعتبار المادي » .

(ماكس نوردو : ١٩٢٠)

عندما أدلى ماكس نوردو بهذا البيان الصريح عن الاهداف والاماني الصهيونية ، منذ خمسين عاما ، كانت العملية الاستعمارية التي بلغت ذروتها في قيام اسرائيل قيد التنفيذ ، بينما أضحى التحالف بين الصهيونية وبريطانيا الامبريالية حقيقة ثابتة وراهنة. بيد ان النضال الاكبر في رسم معالم هذا التحالف المصلحي بين الطرفين يرجع الى صهيوني أممي كان صاحب اليد الطولى في ذلك . فالمعلق العسكري في صحيفة « المانشستر غارديان » ــ هربرت سايد بوثام ــ والذي درج على توقيع مقالاته بعبارة « طالب الحرب » ، هو السباق الى ابراز حسنات التحالف المنشود والتنويه بمنافعه .

لقد كتب سايد بوثام مقالاته قبل أن يتبنى بلفور مبدأ الصهيونية (عام ١٩١٦) ، فحاول تعيين الخطوط العريضة للاولويات البريطانية والتوقعات الصهيونية الملازمة لها ، وفعل ذلك من زاوية خلق « دولة عازلة بصورة مثلى » أمام مصر ــ اي اقامة « دولة يهودية في المستقبل تحت رعاية التاج البريطاني وسيطرته » . وعلى اساس الافتراض الرئيسي القائل بأن « فلسطين تؤلف الان ، وفي كل آن، مفتاح مصر » رأى سايد بوثام متطلبات الاستعمار البريطاني في ضوء ما يلي :

« انه لمن الواضح ، اذن ، وقياسا على ما حدث في الهند ، يبدو ان ما نتطلبه لتأمين دفاع افضل عن مصر ، وتخفيف اعباء هذا الدفاع ، هو دولة تؤدي بالنسبة لحدود تلك الوظيفة التي أدتها افغانستان بالنسبة للهند . وبدون ذلك سوف يكون مركزنا الى الجنوب مما يعرف بالامبراطورية التركية الان في وضع صعب للغاية . فسواء اخذنا ظروفنا السياسية بعين الاعتبار ، أو نظرنا الى الامبراطورية البريطانية من حيث كونها تستند بصورة رئيسية الى السيادة البحرية ، او من زاوية قدرتنا على تطوير قوتنا العسكرية بسرعة لمواجهة الطوارىء المفاجئة ، فان تجربتنا السعيدة في الهند ينبغي تكرارها في المنطقة الجديدة « عبر الهند » .(٨)

لكن غيرة سايد بوثام على رؤية « التجربة السعيدة » التي مرت بها الامبراطورية البريطانية تتكرر مرة اخرى فوق ارض فلسطين — وهي الارض التي يصفها بـ «المنطقة الجديدة عبر الهند» — ليست وليدة البواعث الاستراتيجية والعسكرية وحدها . فالدولة اليهودية المقترحة يتوقع لها أن تلعب دورا يتعدى دور الدولة العازلة في خدمة المصالح الامبريالية البريطانية . اما اليهود فهم بالنسبة له يؤلفون المستعمرين المحتملين على نطاق واسع ويستحق الذكر في فلسطين . ولا ينازعهم في هذه الميزات منازع !

ان هربرت سايد بوثام يتصور المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين بطريقة تفضح الكثير من عناصره الهرتزلية ، رغم ما يورده عن «القياس الهندي» . فهو يتحدث بالاسلوب الهرتزلي ذاته ، ويقول :

« لا شيء يبدو اكثر تأكيدا ، فيما لو اصبحت فلسطين تؤلف جزءا من الامبراطورية البريطانية ، من ان استعمارها بالمعنى الحقيقي لن يتم على يد أمثال اولئك الانجليز الذين عمروا كندا واستراليا . فاليهود وحدهم يستطيعون استعمار فلسطين » .

ثم يمضي صاحب هذا القول الى تطوير عناصر الحجة الداعية الى اجراء تجربة استعمارية يهودية تحت رعاية الامبريالية البريطانية على النحو الاتي :

« وحدهم يستطيعون انشاء ممتلكة مستقلة (dominion) وجديدة على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، حيث ترتبط هذه الممتلكة منذ البداية مع بريطانيا في العمل الامبريالي ، وتكون في آن واحد : حصنا واقيا ضد الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا ، لا بل مدنية تتميز عن مدنيتنا لكنها متشربة بأفكارنا السياسية ، تقف وايانا في المرحلة ذاتها من التطور السياسي ، وتدشن حياتها الثانية كأمة تدين لهذه البلاد بعرفان الجميل وترى فيها الاب الثاني لها » .(٩)

فلنرجع الى عبارة ماكس نوردو الواردة في مطلع هذا القسم اذاك تتبدى لنا المغامرة الصهيونية الاستعمارية ، منذ مطلع عهدها تحت الاحتلال البريطاني لفلسطين وكأنها قد وطدت العزم على اداء المهمة المنوه عنها اعلاه : الوفاء بالدين المترتب عليها لحساب الاب الثاني ، اي الامبريالية البريطانية . وهناك وصف مسهب للدور الصهيوني في حماية المصالح الامبريالية البريطانية على لسان ماكس نوردو . ففي معرض تقديمه لوضع على اساس معضلة لن يستطيع حلها سوى الصهيونية وحدها ، نجده يكتب عام ١٩٢٠ ما يلي :

« ان انجلترا لا تستطيع ضم فلسطين ، لان الحلفاء تخلوا رسميا عن جميع المكاسب الاقليمية . اما اذا تركت فلسطين وشأنها لكي تخدم أمر مصيرها بيدها ، فانها سوف تصبح نقطة نزاع وخلاف بين فرنسا ودولة فيصل العربية . ولا يسع انجلترا ان تتخلى عن فلسطين لصالح فرنسا ، مثلما انها لا تستطيع بنفسها ان تقيم هناك جسرا ثابتا يصل بين الوطنيين المصريين الذين يشنون كفاحا مريرا للتخلص من الحماية البريطانية ، وبين الوطنيين العرب السوريين الذين يحلمون بأمبراطورية عروبية سرعان ما تشكل خطرا يتهدد امن قناة السويس وسلامة الطريق الى الهند» .(١٠)

وقبل أن يدلي نوردو بهذه الاراء بسنة تقريبا كان الكولونيل ر. ماينرتزهاغن قد كتب الى رئيس الوزراء البريطاني من باريس اثناء انعقاد مؤتمر الصلح لكي يشرح التحدي الذي سيواجه مركز بريطانيا الامبريالي في الشرق الاوسط على يد الموجة القومية والوطنية العربية الصاعدة . اما الاقتراح الذي تقدم به ماينرتزهاغن بغية مجابهة التحدي السافر للوجود الامبريالي البريطاني في المنطقة فانه يتضمن الامور التالية :

« نحن لا نستطيع مصادقة اليهود والعرب على حد سواء. ويستند اقتراحي

الى مصادقة ذلك الشعب الذي يرجع ولاءه الصادق لنا ــ اعني : اليهود. فهم يدينون لنا بالكثير وعرفان الجميل من الخصال البارزة لدى عنصرهم . ورغم اننا فعلنا كثيرا لاجل العرب ، فانهم لا يعرفون معنى عرفان الجميل. وفضلا عن ذلك ، فالعرب سوف يشكلون عائقا وعثرة ، بينما سيكون اليهودي خير سند وعون لنا . »(١١)

ثم ينتقل رجل الاستخبارات البريطانية الى تعداد الحسنات المرجو تحقيقها من جراء الضم البريطاني لشبه جزيرة سيناء . فيعدد الحسنات التالية منها :

أ) الضم البريطاني سوف يقيم منطقة عازلة او فاصلة بين فلسطين ومصر .

ب) سوف يعطي بريطانيا موطىء قدم قوي في الشرق الاوسط ويتيح لها الوصول الى البحر المتوسط والبحر الاحمر على حد سواء .

حـ) انه سيزود بريطانيا بالمجال الكافي لاقامة قاعدة استراتيجية ، مثلما تؤمن لها الموافقة اليهودية افضل ميناء على الشاطىء الشرقي للمتوسط .

د) سوف يضع بريطانيا في مركز يؤهلها لاحباط كل تحرك مصيري يرمي الى اغلاق قناة السويس بوجه السفن البريطانية ، مثلما انه يمكنها من حفر قناة ثانية تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط .

هـ) بما أن تعداد السكان العاديين في سيناء لا يتجاوز بضعة الاف نسمة ، فليس من المتوقع بروز مسألة قومية هناك .(١٢)

هذه الاقتراحات وغيرها من المفاهيم التي أخذت تتبلور عشية الانتداب البريطاني على فلسطين وجدت تجسيدها الفعلي ودلالتها العملية خلال حملة سيناء ١٩٥٦ والعدوان الثلاثي ضد مصر وعلى منطقة قناة السويس . كما ان العدوان الاسرائيلي في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ يؤلف برهانا ساطعا على المهدة الى دولة المستوطنين الصهيونية بمهمة تنفيذ الاطماع القديمة وتحقيق الاهداف المنشودة .

وفي عام ١٩٢٦ كشف الميجور البريطاني بولسون نيومان عن اهمية فلسطين الاستراتيجية بالنسبة للسياسة الامبريالية التي تتبعها بريطانيا في الشرق الاوسط ، فأبرز تلك الاهمية كما يلي :

« كان من المقدر لفلسطين ان تصبح احد المرتكزات الرئيسية في السياسة الجوية للامبراطورية البريطانية. وذلك باعتبارها الشريان الجوي الرئيسي بين الشرق والغرب ، وباختصار ، فان فلسطين كانت ستصبح « قناة السويس الجوية » ، بحيث تقوم على الصعيد الجغرافي جنبا الى جنب مع « قناة السويس البحرية » .(١٣)

وحتى بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين وقيام الدولة الاسرائيلية فان السلوك العسكري للمركز الامامي الصهيوني اضفى المزيد من الثقل الاثباتي والتصديق على تلك العملية التي اطلقتها الامبريالية الغربية ثم قامت بتوجيهها صوب حماية مصالحها المستشرية في الشرق الاوسط ، والاشراف على تأمين تلك المصالح دون ان يعترض سبيلها عائق او عثرة .

ان التحالف الصهيوني مع الامبريالية البريطانية خلال فترة الانتداب شهد بصورة تدريجية تحولا في التشديد منذ اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية فصاعدا . واذا كانت السيطرة على الحركة الصهيونية العالمية اثناء العقدين الممتدين من ١٩٢٠ الى ١٩٣٩ « وقفا على الصهيونيين الاوروبيين واليشوف الفلسطيني دون سواهم » ، فان مجيء صيف ١٩٤٠ يمثل نقطة التحول في « انتقال مركز النشاطات السياسية الصهيونية الى الولايات المتحدة الامريكية » .(١٤) وعلاوة على ذلك ، فانه ليس من قبيل الصدفة المجردة ان يأتي التحالف اللاحق بين الصهيونية والامبريالية الامريكية في اعقاب الحرب العالمية الثانية بمثابة«قطيعة» مع بريطانيا ،وان يؤدي بالتالي الىقيام دولة اسرائيل .

لقد استمرت العملية ، لكن بريطانيا « خرجت » منها لكي تفسح المجال أمام التفاعل بين السيادة الامريكية والاطماع الصهيونية .

وفي ١٦ نيسان ، ١٩٤٤ اختار الدكتور ناحوم غولدمان ، عضو اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، ان يخاطب اجتماع المجلس الاداري للمنظمة الصهيونية الامريكية بالعبارات التالية :

« لم أكن يوما احد اولئك الذين يعتقدون بأن مركز الثقل الصهيوني انتقل من لندن الى واشنطن . فما زلت عند اعتقادي بأن لندن هي مركز الثقل، وبكل تأكيد طالما ان تشرشل هو رئيس الوزراء . ذلك لانني استبعد لجوء الرئيس روزفلت الى محاربة تشرشل جديا حول اي اقتراح بالحل يتقدم به الثاني في نهاية المطاف . »

ثم يتابع غولدمان قائلا :

« بيد ان الولايات المتحدة سوف تلعب دورا هاما في تكوين السياسة المتعلقة بفلسطين . فالزعماء البريطانيون من اصدقاء الصهيونية يريدون تصعيد المشاركة الامريكية وزجها اكثر فأكثر في الصورة ، لانه كلما ازداد استعداد اميركا لتحمل اعباء المسؤولية المعنوية والسياسية ، أصبح من الاسهل على بريطانيا ان تنصرف الى معالجة الوضع ازاء العرب . ان الولايات المتحدة ، كدولة داعمة ، تستطيع ممارسة دور حيوي جدا . » (١٥)

هذه الامال الصهيونية تحققت خلال فترة قصيرة،وسرعان ما قفزت الامبريالية الاميركية لتحتل مكان السلف البريطاني . وقد تمادت السياسة الاميركية في تدعيم النشاط الصهيوني ، حتى ان احد الصهيونيين الاميركيين تمكن من اصدار الحكم التالي على الوضع التحالفي الناشىء :

« عند مجيء عام ١٩٤٧ بنوع خاص ، برزت الولايات المتحدة الاميركية كقوة رئيسية في الشرق الاوسط لتحل عمليا محل بريطانيا في المنطقة اياها، وتعمل على انتهاج سياسة خاصة بها . لكن الناطقين الرسميين بلسان الحركة الصهيونية ، في سعيهم لكسب التأييد الاميركي لفكرة الدولة اليهودية ، لم يكونوا قد لجأوا بعد الى تقديم الحجة المتعلقة بمصلحة اميركا القومية في قيام الكومنولث اليهودي كمعقل للافكار الغربية وكحصن ضد التغلغل الشيوعي في الشرق الاوسط . »(١٦)

ولدى قيام اسرائيل تبنت السياسة الامريكية الدور الرئيسي ، وجرى توجيه العملية الاستعمارية للصهيونية الاقليمية صوب خدمة مصالح الامبريالية الاميركية فالصندوق القومي اليهودي ــ وهو الاداة المالية التي انشأها المؤتمر الصهيوني عام ١٩٠١ لكي تكون بمثابة « المؤسسة القومية لابتياع الاراضي » في فلسطين ، بحيث تصبح الاراضي المبتاعة « ملكا مشتركا وثابتا للشعب اليهودي » ــ هذا الصندوق ، اطلق عليه الرئيس ترومان وصفا يستحق الاهتمام ويسترعي الانتباه ، اذ اعتبره « النقطة الرابعةالاميركية وكأنها قد خطط لها قبل خمسين عاما » .(١٧) بيد ان هذا التشبيه الاميركي لنشاطات الصندوق المعروف بالكيرن كايمت واسقاطه على النقطة الرابعة لا يبين سوى ناحية واحدة من نواحي التحالف الصهيوني مع الامبريالية الجديدة خلال العقدين الماضيين . فلنوجه اهتمامنا ، اذن ، نحو طبيعة ومدى التحالف الاسرائيلي مع القوى العصرية للامبريالية الجديدة وقوى المعسكر المضاد للثورة التحررية في العالم. ففي هذين المجالين تنعقد ثمار التكوين الصهيوني ويكتمل نضج التنفيذ ، بحيث تتكشف لنا تلك الخدمات التي تؤديها دولة المستوطنين الصهيونيين لمصالح الامبريالية المستشرية في هذه الرقعة من العالم .

٣ ــ تحالف للغزو والاحتواء : ١٩٥٠ ــ ١٩٧٠

« والنقطة الرئيسية في ملاحظاتي اليوم هي ان منظمة حلف الاطلنطي فيحيرتها الحاضرة ليس لديها الكثير لكي تتعلمه من اسرائيل فحسب ، بل هي بحاجة ماسة الى اسرائيل » .

(John Conell — *Israel: Western Defence Bastion*, July, 1963)

ان صاحب القول الوارد اعلاه كان يحاول التحسر على الخسارة المستمرة التي منيت بها بريطانيا في الشرق الاوسط طيلة العقدين الماضيين ، وهي خسارة على صعيد الوجود العسكري والنفوذ السياسي . فالخلف الاميركي الذي ورث التركة الضائعــة للسيطرة البريطانية يبدو في نظر الرجل وكأنه يكرر ارتكاب أخطاء السلف ، بينما يضيف اليهــا تنويعات خطيرة من عندياته . غير أن خلاصة الملاحظات التي يبديها جون كونل بحضور الفايكونت صموئيل حول موضوع اسرائيل كقلعة من قلاع الدفاع الغربي، يمكن ايرادها على لسانه بالشكل الاتي :

« في اعتقادي انه منذ ١٩٤٨ فصاعدا كان بالامكان ، لا بل من الواجب ، أن تصبح اسرائيل نقطة ارتكاز السياسة البريطانية في الشرق الوسط ... ان جميع مساعينا وجهودنا الدبلوماسية والسياسية ، رغم براعتها ومشقتها، وبالاضافة الى انفاق المبالغ المالية الكبيرة ، كلها كانت عبثا . وذلك لاننا ، في غمرة الاقرار المتردد بوجود اسرائيل كحقيقة وواقع قائمين لم يخطر لنا أبدا ان نواجه المضاعفات المنطقية الكاملة التي تتأتى عــن هذا الوجود ــ وجودها كدولة قومية ، متغربة وموالية للغرب ، على مستوى عال مــن التطور والفعالية الى جانب الاقدام والعزم : وسط مستنقع الشرق الاوسط الاسن . نحن لم نتبع طريق الشرق ولم ننتهج سبيلالمصلحة : بل كنا نتعامى عن مصالحنا اكثر مما تعامينا عن مسؤوليتنا . »(١٨)

الا ان هذا التحسر على زوال الوجود العسكري البريطاني في الشرق الاوسط يجب الا يعمينا عن حقيقة اعتماد اسرائيل على المعسكر الامبريالي . وعن استعدادها لحراسة المصالح العائدة للامبريالية الجديدة بمتابعة الخط الذي تسير عليه السياسة الخارجية الاميركية .

فقد أكد هربرت ماركوزي عقب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بما يلي :

« لم تكن هناك ثمة مناسبة في الامم المتحدة عندما اتخذ ممثل اسرائيل او ممثلوها موقفا الى جانب الكفاح التحرري في العالم الثالث وضد الامبريالية . »(١٩) فالمواقف الاسرائيلية الرسمية على صعيد المنظمة العالمية وفي اوساط الامم المتحدة تناهض كفاح الشعوب في سبيل التحرر من السيطرة الامبريالية الجديدة ، وتلتزم بالخط الموضــوع للسياسة الاميركية الى حد بعيد . »

ومن السهل للمرء ان يعدد الكثير من الامثلة للتدليل علــى تحالف اسرائيــل مع قــوى الامبريالية الجديدة والثورة المضادة في العالم .

فلنتعرف الى بضعة عينات منها :

أ) عند اندلاع نيران الحرب الكورية عام ١٩٥٠ انحازت الحكومة الاسرائيلية بشكــل مفضوح الى جانب الولايات المتحدة الاميركية(٢٠) وجاءت هذه البادرة لتؤكد بما لا يقبل الشك ان عدم الانحياز المزعوم عند اسرائيل لم يتبلور او يتجاوز حدود الدعاية والتبني اللفظي .

ب) عام ١٩٥٦ قامت اسرائيل بدورها كرأس حربة في حملة سيناء للعدوان الانجلو ــ فرنسي ضد مصر ، وقد جاء ذلك في أعقاب البادرة المصرية لتأميم شركــة قنــاة السويس .

جـ) بعد مضي ثلاث سنوات تقريبا على العدوان الثلاثي ضد مصر ، ومع قيام العديد من الدول والبلدان المستقلة حديثا في افريقيا واسيا ، لجأت اسرائيل الى تدشين سياسة ترمي لتدعيم مصالح الامبريالية الغربية وتوسيع مدى المشاريع الراسمالية بتكريس المزيد من الاهتمام للدول المستقلة حديثا في القارة الافريقية .

ففي المقالة الطويلة التي كتبها دافيد بن غوريون لتتصدر الكتاب السنوي للحكومة الاسرائيلية ١٩٥٩ ــ ٦٠ ، نجده يقدم التقييم التالي لمركز اسرائيل الدولي في كل من أسيا وافريقيا :

« لقد انقضت ثلاث سنوات تقريبا على حملة سيناء والكفاح السياسي الذي تلاها. وكان بعض الزملاء قد ساورتهم المخاوف لئلا تؤدي الحملة الى استعداء الشعوب الاسيوية والافريقية ، حتى ان هذه المخاوف بدت وكأن هناك ما يبررها خلال الاشهر الاولى عقب الحملة » .

ثم يتابع بن غوريون تحليله للوضع فيقول :

« ان هذه السنوات الثلاث اظهرت بوضوح كيف ان تلك المخاوف لم يكن لها من أساس البتة ، ولم تتجسد على صعيد الواقع العملي . فاسرائيل اليوم هي واحدة من الدول التي تحظى ببالغ الاحترام والاعجاب بين الشعوب الاسيوية والافريقية ، كما أن حملة سيناء وبطولة قوات « جيش الدفاع الاسرائيلي » اثناء القتال أسهمت بقسط وافر في بروز هذا الموقف الجديد » . (٢١)

ومنذ عام ١٩٦٠ فصاعدا تتخذ اسرائيل لنفسها في غربي آسيا دورا مشابها لدور اليابان في الشرق الاقصى . بيد أن هذا التشابه في الادوار يجب الا يعمينا عن طبيعة الخدمات التي تسديها اسرائيل للامبريالية . فالموقف الاسرائيلي من حرب فيتنام ومن حكومة جنوب افريقيا العنصرية ومن مختلف حركات التحرر في العالم لا يحتاج الى كثير من البحث والتنقيب ، وقد كفت اسرائيل نفسها جميع الباحثين مؤونة ذلك .

ورغم ان اسرائيل تقوم بدور الوسيط بين الامبريالية الاميركية والبلدان المستقلة حديثا في افريقيا ، فان الدولة الصهيونية تلعب دورا مزدوجا في هذا النشاط المضاد لحركات التحرر الثورية : انها تسعى لاقامة علاقات صداقة ومودة مع تلك البلدان الناشئة طمعا في الحصول على تأييدها وكسب دعمها في المجال الدولي . والى جانب ذلك نجدها تضع وكالاتها الدبلوماسية والعسكرية ومؤسساتها « الانمائية » تحت تصرف الامبريالية الاميركية لكي تعمل على توطيد دعائم السيطرة الغربية وتساهم في اجهاض الحركات الثورية للكفاح الوطني التحرري .

ثمة دراسة اجرتها مؤخرا « جماعة البحث في افريقيا » عن الرسالة الامبريالية لاسرائيل في القارة الافريقية . حيث قدمت الدراسة دلائل وافية تفضح طبيعة النشاط الاسرائيلي وتؤكد على ارتباطه الوثيق بمصالح الامبريالية العالمية . لقد توصل القائمون بتلك الدراسة الى اثبات صحة الحقائق التالية :

١ ــ ان حكومة الولايات المتحدة ساعدت في تكوين اسلوب ومادة برامج المساعدة الاسرائيلية لافريقيا .

٢ ــ ان اميركا وحلفاءها ساعدوا في تمويل هذه البرامج عن طريق استخدام الحيلة المستورة نسبيا بالعمل من خلال « البلد الثالث » (الوسيط) .

٣ ــ تركزت برامج المساعدة الاسرائيلية في مجالات لها أهمية استراتيجية ، وخصوصا في حقل التدريب العسكري المتخصص ، مع تطبيقات مباشرة على صعيد مكافحة الثورات ومحاولة اجهاضها .

٤ ــ ان هذه البرامج الاسرائيلية تخدم مصالح اسرائيل الامبريالية على نطاق صغير نسبيا ، لكنها تندمج بصورة متكاملة وملائمة في نطاق الاستراتيجية الامبريالية التي

تسير عليها الولايات المتحدة في مختلف دول العالم وعبر قومياته وشعوبه .(٢٢)
ويكفي ان نتذكر الموقف الاسرائيلي من حرب فيتنام والزيارة التي قام بها الجنرال موشيه دايان منذ أربعة اعوام لمسرح الحرب هناك ، حيث اطلع عن كثب على أساليب الامبريالية الاميركية في مكافحة الثورات الوطنية والوقوف بوجه حرب العصابات .
نحن لا نستطيع الدخول في التفاصيل ضمن النطاق المحدود لهـذه المقالة . لكن جميع الحقائق والدلائل المتوافرة تؤكد باستمرار ووضوح لا يرقى اليه الشك على الدور الذي تلعبه اسرائيل في الشرق الاوسط وخارجه ، كخادم للمصالح الامبريالية . ومما لا ريب فيه ان اسرائيل تحاول تأمين مصالحها الخاصة من خلال ذلك وتسعى للحصول على مزيد من التأييد لسياستها العنصرية والتوسعية . وهذا الامر يتم عن طريق الخدمات الاسرائيلية لقضايا الامبريالية والثورة المضادة في العالم الثالث .
ان اسرائيل تنتعش على هذا الارتباط المثلث الاطراف، وقوى الامبريالية الجديدة لا يسعها الا الانشراح لرؤية معارفها التقنية ورساميلها يتم « تصديرها » عـن طريق اسرائيل وبرامجها الفنية الى البلدان الاسيوية والافريقية . اي ان اسرائيل تستورد هذه«السلع» الغربية لكي تقوم بتصديرها فيما بعد الى بلدان العالم الثالث تحت ستار المساعدات الفنية وبرامج التدريب والانماء .
ويمكن القول باطمئنان ان رسالة اسرائيل كخادم للامبريـالية الاميركية وتوظيفـات الرساميل في بلدان آسيا وافريقيا بنوع خاص تتيح للمعسكر الامبريالي انتهاج سياسة مضادة لثورات التحرر الوطني بحيث تؤدي الى نتائج من هذا القبيل :
ـــ ضمان السيطرة الغربية وتأمين استمرارها .
ـــ الابقاء على الاتكالية الاقتصادية لدى تلك البلدان .
ـــ « احتواء » الحركات الثورية للكفاح الوطني والتحرري . وتقديم العون اللامحدود لقوى الثورة المضادة بالاضافة الى ربطها بعجلة الامبريالية العالمية .
يبدو ان القوى الامبريالية في حلف الاطلنطي يمكنها ان تتعلم من اسرائيل ، بالاضافة الى حاجتها الماسة لاسرائيل، اسلوب ممارسة النفوذ والاستعباد الاقتصادي عن طريق طرف ثالث . ان امبريالية اسرائيل السائرة في ركاب الامبريالية الجديدة تلعب دورا بارزا في تمهيد السبيل أمام التغلغل الامبريالي الغربي في كل من افريقيا وآسيا . هذه الامبريالية المحدودة نسبيا تخدم مصالحها من خلال الخدمات التي تسديها لمصالح الامبريالية العالمية تحت ستار وكالات المساعدة الفنية وبرامج الانماء والتدريب .
ان شعب فلسطين الذي شرده المستوطنون الصهيونيون وجردوه من ممتلكاته واستولوا على أرضه ، ذهب ضحية لعملية استعمارية تمتعت بتأييد مطلق من جانب الامبريالية .
فلا عجب ، اذن ، ان تقوم دولة اسرائيـل بدور الخـادم المخلص والامين لاسيادهـا الامبرياليين ، وفي محاولتها الرامية الى احباط حركة التحرر الوطني الفلسطيني وتصفية الدفع الثوري بين الفلسطينيين .
ثمة ناحية اخرى لهذا الكفاح في سبيل التحرر والعودة والعدالة، وهي تشير الى التحالف القائم بين اسرائيل وجميع القوى المضادة للثورة والموالية للامبرياليـة الجديدة . ان حراسة قناة السويس اصبحت تشمل حراسة المصالح الامبريالية الاميركية في المنطقة ، والاستعداد لضرب حركات التحرر الوطني .
لذا يصبح من الضروري بالنسبة لجميع قوى التقدم والتحرر في العالم ان تقف صفا واحدا بوجه الامبريالية وان تؤيد بكل الوسائل الممكنة حركة الشعب الفلسطيني وثورته الوطنية ضد خدام الامبريالية في العالم الحديث .
فلا يكفي ان نعرف طبيعة الارتباطات التي تشد اسرائيل الى معسكر الامبريالية العالمية، بل ينبغي العمل يدا واحدة في سبيل احباط ذلك التواطؤ وقطع الطريق على كل تحالف امبريالي النزعة والطابع يهدف الى خنق الثورات الوطنية والتحررية في مهدها .

المراجـــع :

1. Fayez Sayegh: "The 'Non-Colonial' Zionizm of Mr. Abba Eban", reprinted from *Middle East Forum,* Vol. XLII, No. 4(Beirut, 1966), p. 71.
2. Theodor Herzl — *The Jewish State:* An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question, 4th ed., trans. by Sylvie D'Avigdor, (London: 1946) p. 30.
3. *The Complete Diaries of Theodor Herzl,* ed. by R. Patai, trans. by H. John (New York: Herzl Press, Thomas Yoseloff, 1960), Vol. II, pp. 799-800.
4. Alex Bein — *Theodore Herzl.* A Biography, (The Jewish Publication Society of America, Philadelphia: 1940), p. 357.
5. Oskar Rabinowicz: "Herzl and England", in *Herzl Yearbook,* Vol. 3, (Herzl Press, New York: 1960), p. 42.43.
6. Ibid., p. 43.
7 Ibid.
8. Herbert Sidebotham — *England and Palestine.* Essays towards the Restorations of the Jewish State, (London: 1918) p. 183.
9. Ibid.
10. انظر المقتطفات المأخوذة من مقالات ماكس نوردو في صيف ١٩٢٠ ، وقد اعيد نشرها في عام ١٩٤٧ على صفحات الجريدة التالية :

The Jewish Standard, December, 1947, page 3, "1920's Warning to 1947".
11. Colonel R. Meinertzhagen — *Middle East Diary:* 1917-1956, (London: The Cresset Press, 1959), p. 18.
12. Ibid , p. 19.
13. E. W. Polson Newman — *The Middle East,* (London: 1926), p. 6.
14. Joseph B. Schechtman — *The United States and the Jewish State Movement,* The Crucial Decade: 1939-1949, (Herzl Press and Thomas Yoseloff, New York: 1966), p. 70.
15. Ibid., pp. 406-407.
16. Ibid., p. 408.
17. Bernard A. Rosenblatt — *The American Bridge to the Israel Commonwealth,* Foreword by Dr. Harris J. Levine (President, Jewish National Fund of America), New York: 1959, p. viii.
18. John Connel — *Israel: Western Defence Bastion,* Published by the Anglo-Israel Association, Pamphlet No. 3, (London: July, 1963), p. 4.
19. Herbert Marcuse — "Fur eine gemeinsame Front"

وهي مجموعات ملاحظات بعنوان «نحو جبهة مشتركة»، نشرت في العدد الخاص من مجلة *Diskussion* (Zeitschrift Fur Probleme der Gesellschaft und der dentsch-israelischen Bezichungen, 8 Jahrgang, Nr. 23, 1967, p. 3.

20. N. Israeli: "Israel and Imperialism" (a brief Analysis), in *International Socialism*, (Spring, 1968), p. 34.
21. David Ben Gurion: "Israel's Security and her International Positions Before and after the Sinai Campaign", in *Israel Government Yearbook 1959-60*, pp. 54 and 55.
22. Africa Research Group: "Israel: Imperialist Missions in Africa", reprinted from *Tricontinental* as chapter 5 in *Palestine: Crisis and Liberation* (Collection Analysis), pp. 109-110.